الملف

مقومات عملانية الثقافة في القرآن الكريم

حوار مع الشيخ آية الله محمد هادي معرفت
تعريب: حيدر نجف

المحجة: ما هي العملانية المتوقعة من الثقافة الإسلامية، والتي تنهض بالفرد المسلم إلى مستوى ﴿وأنتم الأعلون﴾ التي وعدنا بها القرآن؟

معرفت: في البدء ينبغي إيضاح مفردة «الثقافة» لنبحث بعد ذلك في نسبة الثقافة إلى الإسلام أو ما نسميه الثقافة الإسلامية.

المألوف هو إعتبار الثقافة مجموعة وجهات النظر التي يتبناها أفراد المجتمع عن الوجود ويبنون عليها صرح حياتهم. والثقافة بهذا المعنى هي في الواقع أساس البناء المجتمعي، أو هي محفزات السلوك والمواقف التي يتخذها أبناء المجتمع. إن الشكل الذي يكتسبه المجتمع كماً وكيفاً هو من تصميم ثقافة ذلك المجتمع. الثقافة هي معلومات المجتمع وتصوراته، ويمكن إعتبارها علومه ومعارفه. لذلك كلما كانت الأمة متقدمة علمياً كانت على مستوى رفاهي ومعيشي أفضل.

إن سيادة الثقافة على بنية المجتمع مما لا يختلف عليه اثنان إلاّ أن الإسلام أضاف البصيرة إلى العلم ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾. الكتاب بمعنى الشريعة أو قوانين الحياة. وإلى جانب هذه القوانين ذكر القرآن البصيرة كركناً أساسياً في الثقافة الإسلامية. فمن وجهة نظر الإسلام لا يكفي الإنسان أن يكون عالماً، أي أن الثقافة لا تكتمل إلاّ إذا صاحبت العلوم بصيرة، أو صاحبت التعليم حكمة.

العلم شرط عمارة الأرض. وقد جاء في القرآن ﴿هو أنشأكم من الأرض وإستعمركم فيها﴾[1] فالإنسان بما أنه نشأ من الأرض فقد أوكل بعمارتها. وهذه العمارة منوطة بالعلوم طبعاً. فكلما كان العلم متقدماً في مجتمعٍ ما كان واقعهم العمراني والحضاري أرقى. إن مشكلات المجتمعات المتخلفة ناجمة عن أميتهم بلا شك.

(١) اشارة إلى آية قرآنية في سورة آل عمران ١٣٩، وأخرى في سورة محمد ٣٥.

في الكثير من بلدان العالم نلاحظ تقدماً كبيراً في المستوى العلمي. غير أن الثقافة الإسلامية لا تبارك مثل هذا التقدم بالضرورة، وتشترط توفر البصيرة إلى جانب العلم والتحضّر. الثقافة الإسلامية خليط من العلم والبصيرة والتقوى. والتقوى عماد الحياة الإسلامية. يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته: «عليكم بتقوى الله ونظم أمركم». أي يجب على الناس العمل بالتقوى في سلوكهم وأقوالهم ومواقفهم. التقوى بمعنى الخشية، والخشية هي الإلتزام والمسؤولية. وبهذا فإن الثقافة التقدمية من وجهة نظر الإسلام هي التي يكون أتباعها ملتزمون في مواقفهم الشخصية والاجتماعية العامة.

حث الإسلام منذ يومه الأول على طلب العلم والتفكّر، فجاء في إحدى الآيات على سبيل المثال ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون﴾ في هذه الآية ثلاث عبارات. الأولى يقول فيها الباري عز وجل: إننا نزلنا الذكر عليك أي الشريعة، وأن هذه المهمة الإلهية تمّت بصورة كاملة. والعبارة الثانية: هي أن عليك أيها الرسول أن تبيّن للناس ما أنزل إليك. فمهمة الرسول توعية الناس وإبلاغهم، لا بألفاظ الرسالة وحسب، وإنما ينبغي عليه شرحها لهم بالتفصيل. ولا جدال في أن الرسول أنجز بوظيفته هذه خير إنجاز. فمن غير المعقول أن يختار الله رجلاً لمهمة رسالية لا ينهض بتبليغها كأفضل ما يكون النهوض. تبقى العبارة الثالثة في الآية هي المهمة، وفيها لا يقول الباري: «ليطيع الناس ويذعنوا» بل يقول ﴿لعلهم يتفكرون﴾. الهدف من تنزيل الكتب وبعثه الأنبياء وتذكير الله وتبيين الأنبياء هو حث الناس على التفكّر. فالمسلم الحقيقي في منطق الإسلام هو الذي يفكر حتى في أقوال الأنبياء ويتقبلها عن وعي ودراية لا عن عماية وتقليد.

لا إشكال في أن يذعن الإنسان إذعاناً محضاً بدون تفكير أو وعي، إلاّ أن هذا غير محبّذ إسلامياً.

وبالتالي فإن الثقافة الإسلامية في حقيقتها هي ثقافة العلم والبصيرة والتحلّي بالتقوى. هذه هي مقومات الثقافة الإسلامية ووجوه تمايزها عن باقي الثقافات. وإذا ما سار المجتمع على هذا المسار الذي رسمه الإسلام، ستكتب له حركة تقدمية مزدهرة تعمِّر الأرض.

يقول الباري في آية أخرى: ﴿أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾

الأرض هنا بمعنى الحضر والعمران على الأرض، فيكون نقص الأرض بمعنى إنحسار العمران. وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام «أن نقصان الأرض هو فقدان العلماء». أي أن الله إذا غضب على أمة وأراد محق عمرانها أخذ منها علماءها. إذن يتضح: إن أساس المدينة والعمران في المجتمع هو أزدهار العلوم والبصيرة في ذلك المجتمع. والمجتمع السائر نحو الجهل إنما يسير نحو الخراب. وفي المقابل إذا اتجه نحو العلم سار بإتجاه التفتح المدني والحضاري. فلا بد في أن ترافق العلوم ببصيرة في النفس، وحتى عالم الرياضيات أو الفيزياء لا بد له من بصيرة تكمّل تراكمه العلمي.

هنا لا بأس من التذكير بنقطة أشار إليها القرآن الكريم بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. المراد هنا من العلم والعلماء ليس مجرد الفقه والعلوم الدينية، وإنما يقصد مطلق العلم، فكل علم مهما كان هو في منطق القرآن مما يحفّز على الخشية. فكل عالم يستشف بعلمه جوانب من عظمة الباري تعالى فتدعوه إلى الخشوع والخشية. أما جهّال الناس فلأنهم غير عالمين بأسرار الكون وخباياه قد ينكرون وجود الباري أساساً. بينما الذي كشف له علمه عن حقائق الوجود وأنظمة الكون وما يحدث في الطبيعة من العجائب، تقوده معارفه هذه إلى الإيمان بضرورة وجود اللّه وبما له من الكمالات المطلقة. كلما تطور العلم تجلّت عظمة الباري أكثر، الأمر الذي يزيد من تقوى الفرد.

حينما تتجلى عظمة الخالق في نفوس البشر سيدركون تلقائياً أن للعالم غاية سامية يسير صوبها، وأن الوجود لا ينحصر بهذه الأيام المعدودة في الحياة الدنيا. وحينما ينظرون إلى العالم بهذه الذهنية ستغمرهم السكينة والتقوى والتعادل النفسي بشكل تلقائي. إذن الثقافة هي العلم والبصيرة والتقوى والخشية. وكلما كانت درجة هذه العناصر المكوّنة للثقافة أعلى كانت قابليتها على التمدن والعمران أكبر.، هذه هي خلاصة الثقافة الإسلامية... يسعى الإسلام أن يرفع مستوى العلم والبصيرة والتقوى لدى الأفراد. والهدف هو العمارة، لأن عمارة هذه الدنيا مقدمة لعمارة الآخرة.

الذين لا يعيرون إهتماماً لهذا العالم، لن يكون عالمهم الآخر عامراً، لأنهم لم يكتشفوا سر الوجود. ولو كان هذ العالم غير ذي بال لما خلقه الباري تعالى ولما أوجدنا فيه «الدنيا مزرعة الآخرة» إهمال المزرعة يعني أنك لن تجد شيئاً عند الحصاد. كلما بذلت جهداً في هذه المزرعة وأحييتها كلما كانت الثمار أكثر وأنضج.

المحجة: نظراً لما أوردتموه الآن ينبثق السؤال؛ هل يعد النموذج السائد في العالم

المعاصر والذي حقق إنجازات كبيرة على الصعد العلمية والمادية، هل يعد نموذجاً محبذاً؟ وهل المراد بمطلق العلم أن على المجتمع الإسلامي السير في ذات الطريق الذي سلكته المجتمعات الغربية؟ أم أن لنا نظرتنا المختلفة للعملانية في ضوء التعريف الذي ذكرتموه للثقافة؟ بعبارة أخرى ما هي خصائص الثقافة الإسلامية التي تتمظهر في المجتمع على شكل عملانية؟

معرفت: يشكّل العلم النواة المركزية للثقافة الغربية. أما الإسلام فيطرح إلى جانب العلم البصيرة التي تفرز التقوى.

النقطة الأخرى الجديرة بالذكر هي أن الغرب ينشد السعادة عبر تقدمه التقني والصناعي؛ بل إن البشر في الدنيا ينشدون السعادة أساساً، ويفتشون دوماً عن ضالة إسمها السعادة. يتصور البعض أن مجرد التطور العلمي يضمن لهم هذه السعادة. والعلم الذي يطلبونه هو العلم المادي فقط، لذلك نراهم قاصرين في ميادين الفلسفة والعلوم العقلية، والحال أن العلوم العقلية والروحية بما في ذلك الفلسفة والحكمة المتعالية من أهم المعارف البشرية التي تفتح بين يدي الإنسان آفاقاً رحبة يحتاج إليها بالتأكيد.

الغربيون غير ضليعين في هذا الجانب، وإنما صبّوا جل اهتمامهم على التقنية والعلوم الطبيعية، وهذا ما أدى بهم إلى الضلال، فهم لم يفشلوا في العثور على ضالتهم وحسب، بل إزدادوا بُعداً عنها. بعد عصر النهضة حينما تأكدوا أن الأديان المحرفة عاجزة عن ضمان سعادتهم، لاذوا بالعلم، غير أنه كان علماً بلا بصيرة، ولا تصاحبه نزعة فلسفية. لقد خاضوا تجارب عديدة طوال ٣٠٠ أو ٣٠٠ سنة إلاّ أنهم لم يبلغوا المقصود. والأن بدأوا يشعرون أنهم لم يجدوا أنفسهم في العلم طوال القرون الماضية، وراحوا يفكرون حتى في أوروبا وأمريكا بأن يعودوا إلى الاهتمامات الروحية بعض الشيء. فكما يحتاج الجسم إلى غذائه تحتاج الروح إلى غذائها، ومن المعلوم أنهم تجاهلوا غذاء الروح، وهذا ما يؤدي بها إلى المرض والسأم وبالتالي خسران السعادة ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر اللّه تطمئن القلوب﴾.

هذه الطمأنينة هي الشعور بالسعادة، فالإنسان يريد تبديل خوفه وقلقه من المستقبل إلى طمأنينة وسعادة وشعور باللذة والإرتياح.

سافرت مرات عديدة إلى أوروبا ولاحظت هذا الواقع عن كثب. الغربي حينما يشعر أن في باطنه نوع من السوداوية تجرّه إلى الكآبة يحاول الهرب منها بالإنحراف، وراء اللهو

واللعب والأهواء النفسية، إلاّ أنه بهذه الطريقة يزداد انغماساً في المستنقع الذي يتخبّط فيه ولا يرى لكآبته من زوال، لذلك قد يلجأ إلى الإنتحار أو يرتكب أفظع أنواع الجرائم دون أن يعلم لماذا قام بهذه الفعلة. الكثير من الشباب الذين نشأوا في تلك الأجواء، يرون أنهم لم يذوقوا طعم اللذة والراحة في العشرين عاماً التي مضت من حياتهم، وهذا ما يجعلهم يفقدون المبرر لمواصلة الحياة فيفكروا بتخليص أنفسهم من هذا الجحيم. في حين لو كان ثمة بصيرة ترافق العلم وتوضّح للإنسان من أين جاء ولماذا جاء وإلى أين هو ذاهب، لكان الوضع مختلفاً. هذه هي قضايا الفلسفة. الحكماء المسلمون صاغوا حكمة متعالية طبقاً لما جاء في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، ولو أخذ الغربيون بهذه الحكمة المتعالية لحظوا بالسعادة. فالقضية الأساسية هي أن الإنسان حينما يشعر بالخلود ويؤمن بـ «خلقتم للبقاء لا للفناء» وينظر للحياة من هذه الزاوية، عندها لن يكتفي بالعيش عشرين أو ثلاثين عاماً وإنما يطلب الحياة إلى الأبد، وسوف يجد طريق السعادة في هذه الحياة دون الحاجة إلى الإنتحار أو الهرب منها. لقد رسم الإسلام هذا الطريق ويمكن إكتشافه في طيات تعاليم الثقافة الإسلامية.

صحيح أن الإسلام جعل العلم أساساً، إلاّ أنه رتّب إلى جانبه البصيرة والتقوى والتفكّر في المبدأ والمعاد والإيمان بخلود الإنسان، وهذه هي عناصر الثقافة الإسلامية. وإذا التزم الإنسان بهكذا ثقافة نال الطمأنينة المنشودة.

في الغرب تختزل السعادة بسيارة ومنزل وإمكانات مادية، بينما السعادة في الثقافة الإسلامية هي الطمأنينة الداخلية والشعور بالرضا والإنبساط. إذاً هناك فارق كبير بين رؤية الثقافة الإسلامية للسعادة ورؤية الثقافة الغربية لها. السعادة إسلامياً ليست مجرد تأمين المتطلبات المادية الجسمانية بل هي تأمين المتطلبات الجسمانية والمقتضيات الروحانية على السواء، وهذا ما لا يتوفر إلاّ في البصيرة الإسلامية.

المحجة: نطرح سؤالاً آخر في هذا الباب. بعض الغربيين، وحتى بعض كتابنا المحليين، يزعمون عدم عملانية الثقافة الإسلامية قائلين: إنها من معطيات الماضي، بينما تتطلع الجماهير في هذا الوقت إلى أشياء جديدة. ما هو في رأيكم مرادهم من هذه الأطروحة، وما هو ردكم عليهم؟

معرفت: هذا اللون من الفهم الديني وليد عدم التعمق في معطيات الدين. لقد عرض الدين أموراً على البشر لم يدقق فيها هؤلاء. إنهم يتصورون أن حال الإسلام

كحال الأفكار التي طرحها الفلاسفة اليونانيون في أزمنة قديمة وأُديرت بها مجتمعاتهم لفترة من الوقت، ثم تبدلت الأحوال بعد قرون بتطور العلوم والحياة فاستبعدت تلك الأفكار. إنهم يرون الإسلام ظاهرة من تلك الظواهر تتصل بحقبة زمنية معينة ورقعة جغرافية خاصة. ولو أنهم تعمقوا في تعاليم الإسلام الخالدة لفارقتهم هذه الأفكار.

إننا ندعوهم إلى إعادة النظر في الإسلام؛ فهل هو حقاً مقطعية؟ ثم هل كان نمط الحياة الغربية موفقاً؟ وهل أفراد المجتمعات الغربية اليوم راضون عن وضعهم؟ وهل تراهم يشعرون بالسعادة حقاً؟ والذين يؤكدون ضرورة إتباع الثقافة الغربية، هل يعرفون كل أبعاد فكرتهم هذه؟ ولعل أغرب فئة منهم أولئك الذين زاروا الدول الغربية، ألم يشاهدوا المعضلات التي تحاصر الإنسان الغربي إلى درجة تنادى معها الكثيرون لمعالجة الموقف؟ حتى صرّح البعض منهم مؤخراً بأن الإسلام هو الحل. العديد من العلماء الأوروبيين وخصوصاً الفرنسيين راحوا يستزيدون من معرفة التعاليم الإسلامية ليتدارسوها لأنهم إلتفتوا إلى أن السعادة التي ينشدونها قد تكمن في هذه التعاليم.

وحينما تكون لدينا كل هذه الكنوز الضخمة من الثقافة والمعارف، هل يصح أن نلهث لهاثاً أعمى وراء الآخرين بدون أي تمحيص أو تبصّر؟

علينا دعوة القائلين بلا عملانية الثقافة الإسلامية إلى إعادة النظر في أفكارهم هذه والتعمق في تعاليم الإسلام؟ أفلا تحقق التعاليم القرآنية المجتمع السليم في عالم اليوم؟ يقول الإمام علي عليه السلام «الله الله في القرآن لا يسبقكم إلى العمل به غيركم»[1]. العمل به سيحقق لنا الطموحات الكبيرة بلا شك. والإرشادات الإسلامية تأخذ طريقها اليوم للتطبيق في الكثير من البلدان الإسلامية. وهذا يعني أنهم فطنوا إلى طريق الصواب.

المحجة: أشرتم إلى حديث للإمام علي عليه السلام حول مكانة القرآن الكريم في المجتمع الإسلامي، هل من إيضاحات أكثر في هذا الجانب؟

معرفت: في الإصطلاح يقال أن القرآن كتاب شريعة. والشريعة هي أحكام الحلال والحرام والأوامر والنواهي المطروحة على شكل عبادات ومعاملات. إلاّ إنني أعتقد غير هذا. القرآن وضع جميع تعاليمه لبناء مجتمع سليم تتحقق فيه السعادة، وأشار إلى

(٢) نهج البلاغة، الرسالة رقم ٤٧.

المقومات الأساسية لمثل هذا البناء. وأرشد البشر كيف يصنعون مجتمعهم الذي يعيشون فيه حياة رخاء وطمأنينة وسعادة. ﴿يا أيها الناس الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾... إذا شئتم الشعور باللذة في حياتكم عليكم الإصغاء لما أقوله لكم وإتباعه والعمل به. فالتمتع بطعم الحياة منوط باتباع دستور القرآن الكريم. ورسالة القرآن هي رسم هيكلية صحيحة للمجتمع تحقق له سعادته. من هنا لا يصح الرأي المشهور من أن آيات الأحكام قرابة ٥٠٠ آية. فآيات القرآن جميعها آيات آحكام، لأن كل آية تساهم في صناعة المجتمع هي من آيات الأحكام. طبعاً أحكام العبادات والمعاملات مذكورة في السنة، وإذا ما أشار القرآن أحياناً إلى بعض الأحكام العبادية والمعاملاتية فذلك كجزء من هذه البنية، وإلاّ فالقرآن بتمامه يتوخى صناعة المجتمع.

إنطلاقاً من هذا نستنبط من حديث الإمام علي عليه السلام أننا إذا أردنا تشييد مجتمع سعيد سليم علينا استمداد الهيكلية من القرآن، وإن لم نسارع إلى هذا سبقنا الآخرون إليه وشيدوا مجتمعاتهم وفقه فيبلغون السعادة المنشودة ولا نحصد سوى الخسران والندم.

المحجة: كلمة أخيرة للحوزات العلمية...

معرفت: كلمتي لطلبة الحوزات والجامعات أن يلتفتوا إلى رسالة القرآن. لكل آية منه رسالة. في القرآن ٦٢٣٦ آية، ولكل آية رسالة واحدة على الأقل، فهل إهتممنا بهذه الرسائل والتوجهات كما ينبغي؟ التركيز على رسالة القرآن وفهمها من أكبر واجبات كل باحث ديني في الحوزة أو الجامعة. القرآن هو النظام الداخلي للإسلام، ونحن المسلمون، ومجتمعنا هو المجتمع الإسلامي، أفلا يتعيّن علينا قبل غيرنا الضلوع في فهم واستيعاب مواد هذا النظام الداخلي؟ رسالة القرآن تفهم بقدر استيعاب المتلقي طبعاً ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها﴾. هذه الآية تومىء إلى القرآن ذاته، بمعنى: إننا أنزلناه كالماء على الناس والمجتمع الإسلامي، وعلى كل إنسان أن ينهل منه بمقدار إستطاعته وحاجته.

كلمتي لأخواني هي أن يعودوا إلى القرآن بكل جد، وينهلوا منه كلٌّ بما يستطيع. الحوزويون والجامعيون هم صنّاع مستقبل هذه الأمة. وإذا ما عادوا إلى القرآن واستلهموه سيكون المستقبل الاسلامي مُتسماً بالسعادة والطهارة والإتزان.